إلى محمود درويش
مات قمر و نَدبتهُ جميع أشعار الدنيا

شيركو بيكةس

استعار أَيلول
أنفاس أيامه القصيرة
من عالم الفراشات
و آلام لياليه الطويلة من الكورد
أنا الليلة بواب حجر عدميتي الأسود
أنتظر قدوم قصيدة
موشحة بالسواد
قد تأتي القصيدة على
شكل غراب
أجش الصوت عريض الجناح

شيركو بيكةس شاعر من كردستان العراق

أو قد تشبه هدوء عجوز أحدب
قد تصلني
على شكل طفل
مشرد مبتسم زنجي
من جنوب أفريقيا!

من هنا
و على هذه الأرض المنكوبة لكوردستان
من هنا
و مع تبرعم و تساقط أوراق شعرنا
من هنا
و في هذه الأمسية من شهر أيلول
تذكرتُ محمود درويش .
يا ترى!
لماذا مات هذا النهر فجأة؟
لماذا أسودّ تل الزعتر هذا في طرفة عين؟
لماذا سقطت قصيدة البدر المتلألئ
من سماء حيفا و غرقت في البحر و اختفت؟
يا ترى!
لماذا ذهب من هنا كالورود و براعم الربيع
و عاد من هناك كسنابل القمح الصفراء؟
ذهب من هنا ماءً صافياً عذباً ،
و عاد من هناك ماءً عكرا؟
ذهب من هنا عموديا كالمطر ،
و عاد من هناك أفقيا كشجرة نائمة؟

أغنية حزينة زرقاء
تبحث عن الشعراء
تنقط منها الغربة و المساء
تمر من فوقها «أحد عشر كوكبا»
و تتحول إلى حلمٍ إحدى عشرة مرة
إلى غيمة إحدى عشرة مرة
إلى سؤالٍ إحدى عشرة مرة
و تنحني
و تحمل إحدى عشرة مرة
سلة ورود الدمع
و مزهرية الشمس المحطمة؟

أخي!
كيف حالك؟
أنا «سرحان»
ألا تشرب معي قهوة
في منتصف هذه الليلة
وفي مقهى الغربة هذا؟

حمامة بيضاء منهكة كقلبه،
تحمل في منقارها عودُ شِعرٍ أخضرٍ،
أتت محلقة من بساتين «بني عامر»
و تريد أن تحط على تابوتٍ في «رام الله»
هذه هي المرة الأولى التي لا ينهض فيها من أجل حب الحمائم
إنها المرة الأولى التي لا تستطيع ابتسامة الشعر أن تحول وجهه إلى بحيرة المساء

إنها المرة الأولى التي يستلقي فيها بلامبالاة
و لا ينهض فيها بطول قامته من أجل العشق المجنون للوطن
إنها المرة الأولى التي لا يتحدث فيها عندما تتكلم الحرية
إنها المرة الأولى التي لا يمد فيها يده إلى نظارته
و المرة الأولى التي لا يحمل فيها القلم!

كان سبع سنوات عندما انهار الوطن عليه
و أمسى تحت ركام تاريخ حزين
كان سبع سنوات عندما أصبح الرحيل رفيق دربه
بعد عدة أيام من ولادته
نبتت له أجنحة نسرٍ هرم
كان سبع سنوات، ودع الطمأنينة،
ودع البيت و استقر في التشرد!
طفولة من كرة مشقوقة
طفولة من حلم مقطوع
طفولة من دموع خشنة
طفولة من شجرة ليمون وحيدة
طفولة من قمر مسروق!

يا بني!
أنا أمك
لم لا تنهض و تأخذ مني هذا الخبز الحار؟!
كان الوطن امرأة منكوبة مضطربة
ذات شعرٍ ترابي
تنتظر جالسة أمام خيمة المخيم.

كانت دائما تنتظر مجيء شيء
لا تعلم ما هو؟
في كل يوم كانت تأكل الخبز و القهر ثلاث مرات
وفي كل ليلة كانوا يُغرقون حلما فتيا لها بالدم
و يجعلون شجرة زيتونٍ تابوتا له .
محمود أتى من هنا .
أخرج رأسه من بين هذا الدخان .
في هذا الخريف تبرعم شعره .
وجد هوية لونه في ألوان أوراق الأشجار المقلوعة .
كان في كل يومٍ يموت ولا يموت!

يا بني!
أنا أبوك!
لم لا تستيقظ؟
قصيدتان شابتان
أتتا من يافا
تريدان أن تعرفا
هل أصبحتا مطراً أم لا؟!
عندما كبرت الهموم، أصبحت لبلابا
واللبلاب تسلق على نوافذ «عاشق من فلسطين»
الغيوم امتزجت
و قرون الأيائل اختلطت
و الجراح تداخلت
و الشعر أصبح عصابة رأس النساء
أصبح خبزاً

أصبح كرسيَّ الغرف
لم يكن هناك أي مفر
كان على الكلمة أن تصبح رصاصة
كان على الجملة أن تصبح خندقاً
كان على النص أن يصبح درعاً
لم يكن هناك أي مفر
كان على الشعر أن يعطي
نصف جماله
نصف صوته
نصف لونه
نصف برقه
إلى المحاربين
لم يكن هناك أي مفر عندما كان يداهمك الموت
كان الموت يصبح عسكراً
كان الموت يصبح حديداً
و كان عليك أن تصبح إعصاراً
كان عليك أن تصبح تلك اللغة المباشرة
التي لا تضع أي قفل على اللسان
في تلك اللحظات
الشعر لم يكن أقدس من عيون الأطفال
لم يكن أكبر من صراخ الأمهات
و لم يكن أعظم من جسد الشهيد

يا أخي!
أنا رفيقك «سميح»

ماذا دهاك؟
لم لا تنهض؟
كي نعود سوية إلى غزة
و كي نملأ الميكروفون بغزارة الشعر
و نحوله إلى خبز الصباح الحزين
و إلى مزهرية
و إلى سحر الغروب الأصفر
لم لا تنهض؟
يا درويش الشعر الجميل!
كلما تدفق شعرك
تسلق على قامة الجمال
و في كل مرة
و مع كل ديوان جديد
من علياء و حدتك و وحدة وطنك
كنت تصبح نور شمسٍ أمام الله
كنت تصبح لغة الماء الصافية
لغة الأعشاب الخضراء
لغة الحجر
لغة السهول و الجبال
عندما ذهبت إلى بيروت
الأمواج أتت لاستقبالك
البحر أصبح دفترك
و الأرز أصبح قلمك
و صوت فيروز أنيسك
و في الليالي الظلماء

كان شعرك يصبح قنديلاً
و يضيء المكان

أخي!
أنا رفيقك «مارسيل خليفة»
أتيتك بعودي
لم لا تنهض؟
و تعطيني واحة من الشعر
فتيةً فتية
كي أحولها إلى هدير
و إلى شلال حديث حديث
للصوت و الموسيقى
كيف لا تنهض و تقبل عودي؟

في «الكرمل»
كنت رحباً
كالمحيط و كالسماء
في الأعالي
كنت ليلة الصيف القمراء المليئة بالخيال
و كنت مدى لون القصيدة الفضي الجميل
و في الأسفل
أصبحت بستان شجر الزيتون
كنت تطعِّم الأشجار بشعرك
و عندما تثمر الأشجار
لم تثمر الزيتون فقط

كانت تثمر شعراً و زيتونا
زيتوناً و أعين أطفال
قصائد و أوشام خدود النساء الواقفات أمام المخيم
أسود و ابيض
حلو و مر

في «الكرمل»
أنت و بركات
حولتم المجلة إلى بحيرة
حولتم الشعر إلى سفينة
والنثر ظل الساحل
تلك الأيام
تركت شعر القنبلة
تركت الصيحة الدموية للكلمة
عدت إلى نفسك
عدت إلى البيوت السرية للقصيدة

أخي!
لَم لا تنهض
أنا رفيقك «سليم»
أنا الكردي الذي ليس له سوى الريح
لقد امتطيته كي أصل إليك
أتيتك كي نزور معاً «لوركا»
و نسلم على «ريتسوس»
كلاهما ينتظراك

عجباً لا ترد علي!
ما هذا النوم العميق؟
متى كنت كذلك؟
في صباح «أرغوني»
و كأن ورود الرمان هطلت على باريس
و صلت و حقيبتك إليها
حقيبتك كانت ملأى
بفتافيت همومك و هموم وطنك
وضعتك رحالك
في مدينة «بودلير» و زمهرير «السين»
في المساء
أتت الأشجار لاجئة إليك
غطوا بيتك بأوراق الخريف
أتت الفراشات و التفت حول قصائدك
باريس كانت دائما أم الشعر
باريس كانت امرأة تثمر نجوم الكلمة من
شعرها حتى أصبع قدميها
أيتها القصيدة الجميلة
لمَ لا تنهضين؟

أنا أخوك «أدونيس»
أخوك في الشعر
و لكن بروحين مختلفتين
بلون عينين مختلفتين
لم أرَ في حياتي شعرك مستلقياً

لم أرَ في حياتي أغنية لك أغمضت عينها
أُعذرني
أريد الآن
أن أبكي قليلا
في عمان
و عندما كنت تدخل خلوة شعرك السحرية
و تعلق نفسك بخيوط الكلمات ولآليء الخيال الفضية
كنت تنسى الخبز و الماء
مراتٍ
كان الشارع لا يرى قدميك

الهواء و اللون و الشمس و المطر
لم يكونوا يروك
الوحيدة التي كانت تراك
هي أعين الشعر
في «حالات الحصار»
كان زادك
هو الكلمة
كنت طائر الشمس المحلق ما بعد الحصار
في «لماذا تركت الحصان وحيداً»
كنت كاميرا عين القدس
كنت رائحة التبغ في جلباب جدك
كنت خبز أمك الحار
كنت أوراق التأريخ المتساقطة
في «جدارية» كلماتك

كنت النجوم المحفورة في السماء
كنت لغة جديدةً لله
و في لامبالاة الغربة
كنت حلماً مطارداً
كنت وسادة الوحدة
كنت وطناً بلا مكان
كنت زمانا بلا زمان
كنت ألماً لجرح قديم جديد في جسدك

أخي!
لمَ لا تنهض؟!
أنا ضيفك
أنا أسمي «شيركو بيكة س»
كردي لا املك سوى الريح
و حفنة من الشعر
بالرغم من أننا لم نلتق
و لكن الشعر كان قمرنا
لذا أتيت

أخي!
كيف لا تنهض للضيف؟
أتيتك من «هلكورد»
و جلبت معي بدر هذه الجبال
و راوندها
و كلمات اللوز من شعري

لمَ لا تنهض؟!
و لكن أنت «لماذا تركت الحصان وحيداً»؟
لماذا سلمتنا ليد القدر؟
لماذا رميتنا في ورد البكاء
و المأتم المبكر
و رحلت و حيدا؟
و سلمت أشعارنا
إلى ليالي اللاجدوى و إلى الضباب
في تلك الليلة المشؤمة
ليس نحن فقط
الكل تذكر محمود درويش
الأحصنة روت حكايته إلى المُهر
الطيور للأشجار
و الأشجار للسهول
و السهول للجبال
في فلسطين
كل الألوان بكت على أكتاف بعضها
و من البكاء خلق لون جديد
أسموه اللون الدرويشي
في الطرف الآخر من محيط مجنون
في مدينة لا قلب لها
توقف قلب قمر عن الخفقان
في مدينة لا دموع لها
لم تكن هناك أي عين تذرف الدمع
سوى عدة عيون

لم يعرف أحداً في هذه المدينة
إلى أين يرحل هذا القمر الغريب
في غابة كونكريت
أمام نافذة في الطابق الثالث من مبنى
فتاة فلسطينية لاجئة
ذات عشرة أعوام
كانت تنظر إلى مشهد حزين في الأسفل
و كأنها تحلم
أرتعش قلبها
و كأنها تحلم
و كان قلبها أخبرها
بقت قطرتا دمع متمردتين في غمد عينيها
في الضفة الأخرى من محيط لا رحمة له
وطن على شكل شاعر
كان يحتضر
وطن على شكل قصيدة
تهاوى
انقطعت أنفاس النسمة
أَي عيني!
أنتِ لا تنهضين لأحد
و لكن يجب أن تنهضي لأجلي
أنا الشعرُ أنا الشعر
أتيت أعطيك هذه الروح
لمَ لا تنهضين و تأخذيها مني؟!
أنا الشعرُ أنا الشعر

من بقي معك كما بقيت
من أحبك بالقدر الذي أحببتك
في رواق أبيض طويل
ممرضة بيضاء
تدفع ببطء عربة بيضاء
قمر أبيض مستلقٍ على ظهره
عيناه مغمضتان
وردتا يديه كانتا على صدره
في الضفة الأخرى من محيط لا مبالٍ
في بلدٍ بارد الدم
في زمنٍ بارد الدم
في مشفى ذي أعين كبيرة و لا دموع له
مات قمر
و سقط في العدم
عتم الخيال
و كل أشعار الدنيا بكت له